كلمة التحرير

في أولويات الإصلاح في التعليم الجامعي في العالم الإسلامي

هيئة التحرير

يتأسس الحديث في هذا المقام على الاعتقاد بأولوية الإصلاح الفكري في واقع الأمة المسلمة، وعدّه أولوية في تحقيق الإصلاح في المجالات الأخرى. ويتوجه الحديث أساساً إلى النخب العلمية والفكرية والمثقفة من الإدارات الجامعية والأساتذة الجامعيين، على أساس أنّ الجامعة قاطرة الإصلاح في المجالات الأخرى، لما تتولاه من إعداد الأطر والقيادات في مجالات العلم والعمل في سائر ميادين النشاط في المجتمع الحديث. فالجامعات تتحمل مسؤولية كبيرة في تشكيل عقليات الطلبة، وفي امتلاك المهارات المتقدمة في التفكير والبحث، وحل المشكلات، لا سيّما في برامج الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه). لكن ذلك يجب أن لا ينسينا أهمية الإصلاح في مراحل التعليم العام، وما قبله في مرحلة الطفولة المبكرة، والتعليم المدرسي، فضلاً عن التنشئة الأسرية والتربية الوالدية.

لكنَّ مجال الإصلاح في التعليم الجامعي في العالم الإسلامي مجالٌ واسع؛ فواقع هذا التعليم يعاني من كثير من المشكلات؛ منها ما هو حديث العامة والخاصة، مثل الغياب المذهل لأسماء جامعات العالم الإسلامي عن قوائم أسماء أفضل الجامعات في العالم وفق مختلف المعايير التي تضعها مؤسسات تقويم الجامعات، ومهما كان العدد الذي يتم تحديده في القائمة، فالغياب مذهل لو كانت القائمة "أفضل خمسين جامعة"، أو "أفضل مائة جامعة"، أو حتى "أفضل خمسمئة جامعة". والغياب مذهل لو كانت المعايير تتعلق بحجم الإنفاق على البحث العلمي، أو بنسبة عدد الأساتذة إلى عدد الطلبة، أو بعدد برامج الدراسات العليا، أو بالإنجاز العلمي للأساتذة، أو غير ذلك من المعايير.

وبقطع النظر عن مدى ملاءمة تطبيق هذه المعايير على الجامعات في العالم العربي والإسلامي، فإنَّ هناك كثيراً من الأسباب التي تدعو إلى القلق حول قدرة الجامعات العربية والإسلامية على أداء مهماتها المأمولة في الإصلاح المنشود، ما دامت باقية على ما هي عليه في الوقت الحاضر.

والأخطر من ذلك كله هو مسألة المضمون العلمي والفكري الذي يجري تعليمه أو تطويره في جامعات العالم الإسلامي، فهو في الغالب مضمون غريب مستورد من الغرب الأوروبي والأمريكي، ويتم التعامل معه، في أحسن الأحوال؛ تدريساً وتطويراً وإنتاجاً، وفق المنهجية التي يتم التعامل بها معه في البلاد التي استوردناه منها، بينما يغيب في أثناء ذلك ما يتم عادة في جامعات الغرب من ممارسات منهجية تتضمن التحليل النظري للكشف عن المنطلقات الفلسفية لذلك المضمون العلمي والفكري، ومنهجية النقد والمقارنة والموازنة، فضلاً عن غياب روح التجديد والإبداع، وحوافز الابتكار والاكتشاف. ويتم بذلك استلاب الأستاذ الجامعي والطالب الجامعي لصالح العلوم والأفكار في صياغاتها الغربية، بوعي كامل على هذا الاستلاب أحياناً،[1] أو بغير وعي في معظم الأحيان. ومع هذا الاستلاب تضيع الذات؛ أيُّ ذاتٍ، قوميةً كانت، أو دينية، أو وطنية، وتفقد هويتها وتميّزها.

وإذا كان إصلاح المجتمع يتسع ليشمل الإصلاح السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي والتربوي، إلخ، وإذا كانت صور الإصلاح في كل مجال من هذه المجالات تتعدد وتتنوع لتشمل إصلاح السياسات والمشروعات والبرامج والتمويل، إلخ، فإن إصلاح الجامعة، وهي مؤسسة واحدة من المؤسسات التي أنشأها المجتمع من أجل

[1] لا نزال نجد من بين أساتذة الجامعات في بلادنا من يؤمن بأن التقدم والتحديث يحتاج إلى تنفيذ وصية طه حسين يوماً ما؛ تلك الوصية الممثلة في قوله: "لكن السبيل إلى ذلك ... واضحة بينة مستقيمة، ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة؛خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب. ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع." انظر:

- حسين، طه. **مستقبل الثقافة في مصر**، القاهرة: دار المعارف، ط٢، ١٩٩٦م، ص٣٩.

خدمته، يتسع كذلك ليتناول مشكلات التعليم الجامعي الكثيرة؛ فمنها ما يختص بالإدارة والتنظيم والقيادة الجامعية، ومنها ما يختص بالبرامج والتخصصات العلمية والمهنية، أو بمصادر التمويل والإنفاق، أو بشروط قبول الطلبة، وشروط تخرجهم، أو بأساليب التدريس ووسائله ونشاطاته، أو ببيئة البحث العلمي وبرامجه وأولوياته وتمويله، إلخ.

لكن جهود الإصلاح لا بدّ أن تباشر التركيز على القضايا التي يتيسر فيه الإصلاح، وتكون ضمن دائرة اهتمام المصلح أو تخصصه أو مسؤوليته. وعدم قدرة الأستاذ الجامعي على الإصلاح في مجال معين لا يعفيه من مسؤولية الإصلاح في المجال الذي يمكنه فيه القيام به، أو تُطلب منه المسؤولية عنه. فثمة درجة كبيرة من الحرية عند الأستاذ الجامعي في مجالات متعددة، للاختيار والاجتهاد والتواصل مع الطلبة؛ حواراً وتفاعلاً وتوجيهاً وتأثيراً؛ ومن ثم إصلاحاً. ولعلّ ذلك هو بيت القصيد في الإصلاح الجامعي!

ونقترح النظر في الموضوعات الآتية للتوقف عندها والتفكير في صور الإصلاح الممكنة في كل منها:

١. تقديم برامج جديدة في الدراسات الجامعية العليا (الماجستير والدكتوراه)، وتتضمن تصميم برامج جديدة في مجالات العلوم الإسلامية وقضايا الفكر الإسلامي، يكون التركيز فيها على تنزيل الأحكام والمقاصد على الواقع المعاصر، والتخفيف من الاستغراق في تاريخ العلوم. وعليه فإن اختيار موضوع التدريس والبحث في الدراسات الجامعية العليا، للتحاور حول فرص الإصلاح فيه، يأتي من باب الحرية المتاحة للأستاذ الجامعي للتواصل مع طلبةٍ على درجة متقدمة من النضج والاستعداد للتلقي، وربما يكون هذا التواصل مثمراً؛ نظراً لعدد الطلبة القليل في هذه البرامج (بالمقارنة مع عدد الطلبة في برامج الدرجة الجامعية الأولى).

٢. تصميم برامج تدريب ورفع كفاءة ونقل خبرات للأساتذة الذي يمارسون التدريس في برامج الدراسة العليا والإشراف على الأطروحات الجامعية في هذه البرامج؛ إذ إن مجال الإصلاح في الدراسات الجامعية العليا يتسع يقيناً إلى تقدير مدى الحاجة إليها،

وتحديد أهدافها وأولوياتها، وتوفير متطلباتها، وتصميم برامجها، والطريقة المناسبة لإدارتها، واختيار طلبتها وأساتذتها. وكثير من هذه المسائل لا تقع ضمن مسؤولية الأستاذ الجامعي بصورة مباشرة، ومع ذلك فإنّ لبعض الأساتذة دوراً محورياً في هذه المسائل بحكم مسؤولياتهم الإدارية في العمل الجامعي، من مستوى رئيس القسم أو عمادة الكلية أو رئاسة الجامعة، إلى عضوية اللجان التي توكل إليها مثل هذه المسائل في المستويات المختلفة من المسؤولية الإدارية، سواءً أكان ذلك لتقديم المشورة والاقتراحات والملاحظات، أم لاتخاذ القرارات. لكن الذي لا شك فيه أن الأستاذ الجامعي في برامج الدراسات العليا سيكون في نهاية المطاف أمام عدد محدود من الطلبة، يمتلكون قدراً من التميز والنضج والاستعداد وتوفر الحوافز، ما يجعل منهم فرصة ثمينة لكي يباشر معهم الأستاذ الجامعي جهود الإصلاح العلمي والفكري، ويفتح لهم، ولنفسه معهم، فرصاً واسعة للنمو والتقدم والإنجاز.

٣. تطوير جامعة قائمة لتصبح أنموذجاً للإصلاح المنشود في مجال التعليم الجامعي. وذلك بإدخال خبرات وتجارب تختص بالتكامل المعرفي، الذي يجمع في برامج الجامعة: معارفَ الوحي والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والتخصص المزدوج، والتخصص الرئيس والفرعي، والبيئة الجامعية الحافزة على الإبداع والابتكار والإسهام في خدمة المجتمع، إلخ.

٤. إغناء الوسط الجامعي بنشاطات علمية مكثفة في صورة ندوات أو مؤتمرات أو دورات تدريبية حول قضايا فكرية عامة، لتوليد زخم من الاهتمام والبناء على ما يتكوَّن في كل نشاط، وتوسيع متدرج لدوائر الاهتمام.

٥. اقتراح برامج محددة للتطوير والإصلاح في التعليم الجامعي تقدَّم إلى عدد من المؤسسات المتخصصة، مثل رابطة الجامعات الإسلامية، واتحاد جامعات العالم الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

وهذه دعوة مفتوحة للمعنيين بصورة مباشرة بالجامعات في العالم العربي والإسلامي، ولكل المفكرين والباحثين وحملة مشاريع الإصلاح في الأمة، أن يولوا هذا الملف الأهمية

التي يستحقها، حتى لا تستنزف كل الطاقات المتاحة من أجل الاهتمامات الملحَّة بجهود الإصلاح الراهنة في الشؤون السياسية والاقتصادية، ولا يبقى للإصلاح الفكري والتربوي والتعليمي ما يلزمه من جهود، على الرغم من أنه الإصلاح العميق الأثر، والبعيد المدى، والضمان الأهم لمستقبل الأمة في أجيالها القادمة.

جاءت أبحاث هذا العدد من المجلة لتكشف عن البُعد الفكري في مجالات معرفية متنوعة، يربط بينها سعي منشود لإعمال الفكر المنهجي في تتبع قضايا محددة من هذه المجالات. وقد جاء البحث الأول المعنون بـ: "تواصلية الفن الإسلامي: النظرية والتطبيق" للدكتور إدهام حنش، ليُبرز محاولة جادة لاستكشاف معالم نظرية إسلامية لثقافة التواصل الإنسانية من خلال الفن؛ انطلاقاً من الرؤية القرآنية الكونية، المتضمنة مفهومي: التعارف والبيان.

وحاول الدكتور عودة الجيوسي في بحثه المعنون بـ: "البيئة والتحول نحو الاستدامة: نظرة إسلامية" أن يُبلور تصوراً إسلامياً لفكرة التنمية البيئية، من خلال نقد الفكر الغربي في نظرته للتنمية وتنظيره لها، ومحاولة تأصيل فكرة التنمية، بتتبع المنظور القرآني والحديثي والتراثي لهذه القضية.

أما البحث الثالث الموسوم بـ:"علاقة الرؤى والأحلام بالنبوات عند مفكري الإسلام"، فقد ناقش فيه الدكتور محمد علي الجندي قضية أخذت –في جانب منها– حيّزاً كبيراً من محاورات العلماء والمفكرين والمفسرين وعلماء النفس، إلخ، بهدف إبراز إسهام الفكر الإسلامي وبيان تأصيلات هذا الإسهام لحجية الرؤى والأحلام، وصلتها بالنبوة، ومدى توافقها مع صحيح الكتاب والسنة، ولتؤسس لنا –في الوقت نفسه– منطلقات علمية ومنهجية لفهم هذا الموضوع الشائك، الذي يدخل في دائرة دراسة الغيبيات.

وناقش الدكتور فؤاد بن أحمد بعض المواقف الدينية والسياسية لابن رشد من خلال بحثه المعنون بـ"وجه آخر لفكر ابن رشد: مواقف دينية وسياسية"؛ إذ كشف لنا البحث

عن ملامح لم نألفها في كتابات ابن رشد التي أبرزته فيلسوفاً وفقيهاً. وحاول البحث تتبع الملامح التاريخية لفلسفة ابن رشد بوصفها مدخلاً لفهم طريقة تمثله وقراءته لبعض القضايا الدينية والأحداث التاريخية والظواهر الثقافية، وطريقة استعادته لها في نصوصه.

واحتوى العدد قراءتين: قراءة لسلسلة "الدراسات القرآنية"، لمؤلفها الدكتور طه جابر العلواني، وقدّمها الدكتور سليمان الدقور. وقراءة أخرى لكتاب "نظرية الأهلية: دراسة تحليلية مقارنة بين الفقه وعلم النفس"، لمؤلفه الدكتوره هدى هلال، وقدّمها الدكتور ماهر حصوة.

وفي العدد حلقة جديدة من عروض مختصرة، تكشف عن أحدث الإصدارات الفكرية والمعرفية المتصلة بأبحاث العدد. وثمة دعوة للمشاركة في مؤتمر بعنوان: "الإعلام المعاصر في الرؤية الحضارية"

سائلين المولى السداد والرشاد

والحمد لله رب العالمين